قال تعالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ.. (٤) ﴾ [الرعد]

فالأرض تصبح مُخضرَّة من لُطْف الحق سبحانه ، ومن خبرته فى مداخل الأشياء ، لذلك قال بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج]

ولدقّة الشعيرات الجذرية نحرص ألاَّ تعلو المياه الجوفية فى التربة ؛ لأنها تفسد هذه الشعيرات فتتعطن وتموت فيصفرُّ النبات ويموت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٦٤) ﴾

فما فى السموات وما فى الأرض ملْك لله تعالى ، ومع ذلك لا ينتفع منها الحق سبحانه بشىء ، إنما خلقها لمنفعة خَلْقه ، وهو سبحانه غنيٌّ عنها وغنيٌّ عنهم ، وبصفات الكمال فيه سبحانه خلق ما فى السماوات وما فى الأرض ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) ﴾ [الحج]

وصفات الكمال فى الله تعالى موجودة قبل أنْ يخلق الخَلْق ، وبصفات الكمال خلق ، وملكيته تعالى للسماوات وللأرض ، ولما فيهما ملكية للظرف وللمظروف ، ونحن لا نملك السماوات ، ولا نملك الأرض ، إنما نملك ما فيهما من خيرات ومنافع مما ملّكنا الله له ، فهو الغنى سبحانه ، المالك لكل شيء ، وما ملَّكنا إلا من باطن مُلْكه .

والحميد : يعنى المحمود ، فهو غنى محمود ؛ لأن غِناه لا يعود

عليه سبحانه ، إنما يعود على خَلْقه ، فيحمدونه لغناه ، لا يحقدون عليه ، ومن العجيب أن الحق سبحانه يُملِّك خَلْقَه من مُلْكه ، فمَنِ استخدم النعمة فيما جُعلتْ له ، ومَنْ أعطى غير القادر من نعمة الله عليه يشكر الله له ، وهي في الأصل نعمته . ذلك لأنك أنت عبده ، وقد استدعاك للوجود ، وعليه سبحانه أنْ يتولاَّك ويرعاك .

فإن احتاج غير القادر منك شيئاً ، قال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فاعتبره قرضاً ، وهو ماله ، لكنه ملَّكك إياه ؛ لذلك لا يسلبه منك إنما يأخذه قرضاً حسناً ويضاعفه لك ؛ لأنه غنيٌّ حميد أي : محمود ، ولا يكون الغني محموداً إلا إذا كان غير الغني مستفيداً من غنَاه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾

هذه الآية امتداد للآية السابقة ، فما في السماء وما في الأرض ملْك له سبحانه لكنه سخَّره لمنفعة خَلْقه ، فإنْ سأل سائل : فلماذا لا يجعلها الله لنا ويُملكنا إياها ؟ نقول : لأن ربك يريد أنْ يُطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبداً ، وستظل ملْكاً لله وأنت تنتفع بها ، وهل تأمن إنْ ملَّكها الله لغيره أنْ يتغيَّر لك ويحرمك منها ؟ فأمْنُك في أن يظل الملْك لله وحده ؛ لأنه ربك ومُتولِّيك ، ولن يتغير لك ، ولن يتنكَّر في منفعتك .

وقوله تـعالى : ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج] الفُلْك : السـفن ، تُطلق على المفـرد وعلى الجمع ، تـجرى فى البـحر بأمـره تعالى ، فـتسيـر السـفن بالريح حيث أمـرها الله ، كـمـا قـال سبـحانه : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة] وهذه لا يملكها ولا يقدر عليها إلا الله ، وقال فى آية أخرى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

وتأمَّل دقَّـة الأداء القرآنى من الله الذى يعلم مـا كان ، ويعلـم ما يكون ، ويعلَم ما سـيكون ، فلقائل الآن أنْ يقول : لم نَعُد فـى حاجة إلى الريح تُسيِّر السفن ، أو توجهها ؛ لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحـركات ، نعم السـفن الآن تسيـر بالمحـركات ، لكن للريح مـعنى أوسع من ذلك ، فـالريح ليـست هذه القوة الذاتيـة التى تدفع السـفن على صفحـة الماء ، إنما الريح تعنى القوة فى ذاتهـا ، أياً كانت ريحاً أم بُخَاراً أم كهرباء أم ذرة .. إلخ .

بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال] يعنى : تذهب قـوتكم أياً كانت هذه القـوة حتى الصـياد الذى يركب البحر بقارب صغير يُسـيِّره بالمجاديف بقوة يده وعضلاته هى أيضاً قوة ، لا تخرج عن هذا المعنى .

وهكذا يظل مـعنى الآية صالـحاً لكل زمـان ولكل مكان ، وإلى أن تقوم السـاعة .

والريح إنْ أُفردتْ دلَّـتْ على حدوث شرٍّ وضـرر ، كمـا فى قوله تعالي : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات]

وقوله : ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأنفال]

وقوله : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الأحقاف]

وإنْ جاءت بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر]

وسبق أنْ تحدثنا عن مهمة الريح في تماسك الأشياء وقيامها بذاتها ، فالجبلُ الأشمّ الذي تراه ثابتاً راسخاً إنما ثبتَ بأثر الريح عليه ، وإحاطته به من كل جانب ، بحيث لو فُرِّغ الهواء من أحد جوانب الجبل لانهار ، وهذه هي الفكرة التي قامت عليها القنبلة ، فالهواء هو الذي يقيم المباني والعمارات ويثبتها ؛ لأنه يحيطها من كل جانب ، فيُحدِث لها هذا التوازن ، فإنْ فُرِّغ من أحد الجوانب ينهار المبنى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] فالسماء مرفوعة فوقنا بلا عَمَد ، لا يمسكها فوقنا إلا الله بقدرته وقيوميته أنْ تقع على الأرض إلا بإذنه تعالى ، كما قال في آية أخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة ، والفَهْم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد ، لكن هما صفتان مختلفتان ، فالرأفة تزيل الآلام ، والرحمة تزيد الإنعام ، والقاعدة أن دَرْء المفسدة مُقدَّم دائماً على جَلْب المصلحة ، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعاً برحمته .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بمثل : قلنا هَبْ أن واحداً يرميك بحجر ، وآخر يرمي لك تفاحة ، فأيُّهما يشغلك أولاً ؟ لا شكَّ ستُشغل

بالحجر ، كيف تقى نفسك من ضرره ثم تحاول أن تنال هذه التفاحة ؟

لذلك قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٦١)﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُذكّرنا ببعض نعمه وببعض العمليات التى لو تتبعناها لوقفنا بمقتضاها على نِعَم الله علينا ، ولم نَنْسها أبداً .

أولها : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء : أن يعطى المحيي ما يُحييه قوة يؤدى بها المهمة المخلوق لها . والإحياء الأول فى آدم ـ عليه السلام ـ حين خلقه ربه وسوّاه ونفخ فيه من روحه ، ثم أوجدنا نحن من ذريته .

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] وكما أن الخَلْق آية من آيات الله ، فكذلك الموت آية من آيات الله ، نراها ونلمسها ، وما دُمْتَ تُصدِّق بآية الخَلْق وآية الموت ، وتراهما ، ولا تشك فيهما ، فحين نقول لك إن بعد هذا حياة أخرى فصدِّق ؛ لأن صاحب هذه الآيات واحد ، والمقدمات التى تحكم أنت بصدقها يجب أنْ تؤدى إلى نتيجة تحكم أيضاً بصدقها ، وها هى المقدمات بين يديك صادقة .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ.. (٦٦)﴾ [الحج] والإحياء

يُطلَق فى القرآن على معانٍ متعددة ، منها الحياة المادية التى تتمثل فى الحركة والأكل والشرب ، ومنها الحياة فى الآخرة التى قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت]

وهذه هى الحياة الحقيقية ؛ لأن حياة الدنيا تعتريها الأغيار ، ويتقلَّب فيها الإنسان بين القوة والضعف ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، والصِّغَر والكِبَر ، وبعد ذلك يعتريها الزوال ، أما حياة الآخرة التى وصفها الله بأنها الحيوان يعنى : مبالغة فى الحياة ، فهى حياة لا أغيار فيها ولا زوالَ لها .

إذن : لديك حياتان : حياة لبِنْية المادة وبها تتحرك وتُحس وتعيش ، وحياة أخرى باقية لا زوالَ لها .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال] كيف - إذن - ونحن أحياء ؟ قالوا : لما يحييكم ليست حياة الدنيا المادية التى تعتريها الأغيار ، إنما يحييكم الحياةَ الحقيقية فى الآخرة ، الحياة الباقية التى لا تزول ، التى قال الله عنها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] يعنى : العلم الحقيقى الذى يهدى صاحبه .

فإنْ كانت الحياة المادية الدنيوية بنفْخ الروح فى الإنسان ، فبمَ تكون الحياة الثانية ﴿ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال]

قالوا : هذه الحياة تكون بروح أيضاً ، لكن غير الروح الأولى ، إنها بروح القرآن الذى قال الله فيه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] وسمَّى الملك الذى ينزل به روحاً : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

فالروح الثانية التى تُحييك الحياة الحقيقية الخالدة هى منهج الله فى كتابه الكريم ، إن اتبعته نلْتَ هذه الحياة الباقية الخالدة وتمتعتَ فيها بما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، وهى لا مقطوعة ولا ممنوعة .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾ [الحج] كفور : صيغة مبالغة من كافر ، والكفور الذى لم يعرف للمنعم حَقّ النعمة ، مع أنه لو تبيَّنها لما انفكَّ أبداً عن شكر المنعم سبحانه .

والإنسان يمرُّ بمراحل مختلفة بين الحياة والموت ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١)﴾ [غافر] ، فمتى سيقولون هذا الكلام ؟

قالوا : هذا يوم القيامة ، وقد أحياهم الله من موت العدم ، فأحياهم فى الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم فى الآخرة ، فهناك موت قبل إيجاد ، وموت بعد إيجاد ، ثم يأتى البعث فى القيامة .

وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ .. (٦٦)﴾ [الحج] قضية قالها الخالق - عز وجل - ولم يدعها أحد لنفسه مع كثرة الكفار والملاحدة والأفاقين فى كل زمان ومكان ، لم نسمع مَن ادَّعَى مسألة الخَلْق ، وهذه قضية يجب أن نقف عندها وأن نبحث : لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعى ذلك ؟ وإذا لم يَدَّع الخَلْق أحدٌ ، ولم يدَّع الإحياء أحد ، فمَنْ - إذن - صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة ؟

إذا كان الناس يهتمون ويؤرخون لأىِّ مخترع اخترع آلة مثلاً ، فيقولون : مخترع الكهرباء فلان وعاش فى بلدة كذا ، وكان من أمره كذا وكذا ، وتعلم فى كذا ، وحصل على كذا .. الخ فكيف بمَنْ خلقكم

واحياكم من عدم ؟ خاصة وهذه المسألة لم يتبجح بادعائها أحد فثبتت القضية له سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا(١) هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلق آدم عليه السلام خليفة له فى الأرض ، وأجرى له تدريباً على مهمته بالأمر الإلهى والنهى الإلهى ، وأخبره بعداوة الشيطان له ولذريته ، وحذّره أن يتبع خطواته ، وقد انتهت هذه التجربة بنزول آدمَ من الجنة إلى الأرض ليباشر مهمته كخليفة لله فى أرضه على أنْ يظلّ على ذكْر من تجربته مع الشيطان . وقد سخّر الله له كل شىء فى الوجود يخدمه ويعمل من أجله .

ثم أنزل الله عليه منهجاً ، يعمل به لتستقيم حركة حياته وحياة ذريته ، وذكّره بالمنهج التدريبى السابق الذى كلّفه به فى الجنة ، وما حدث له لما خالف منهج ربه ، حيث ظهرت عورته : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف]

كذلك إنْ خالفت هذا المنهج الإلهى فى الدنيا ستظهر عوراتكم . لذلك إذا رأيت أىّ عورة فى المجتمع فى أىّ ناحية : فى الاجتماع ، فى الاقتصاد ، فى التربية ، فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عُطِّل ، فظهرت سوأة من سوءات المجتمع ؛ لأن منهج الله هو قانون الصيانة

---

(١) المنْسَك : الموضع الذى تذبح فيه النسُك . والمنسك : شرعة النُّسُك وهو الذبح . والمناسك : المتعبدات . [لسان العرب – مادة : نسك] .

الذى يحميك وينظم حياتك لتؤدى مهمتك فى الحياة .

كما لو دخلتَ بيتك فوجدتَ آلة من آلات البيت لا تؤدى مهمتها ، فتعلم أن بها عطلاً فتذهب بها إلى المهندس المختص بصيانتها ، كذلك إن تعطل فى حياتكم شيء عن أداء مهمته فردُّوه إلى صاحب صيانته إلى الله وإلى الرسول ، وهذا منطق جازم يعترف به الجميع المؤمن والكافر أن ترد الصنعة إلى صانعها ، وإلى العالم بقانون صيانتها ، وأنت لم يدَّع أحد أنه خلقك ، فحين يحدث فيك خَلَل ، فعليك أنْ تذهبَ إلى ربك وخالقك .

لذلك كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[1] ، ومعنى « حزبه أمر » يعنى : شيء فوق طاقته وأسبابه ، يُهرَع إلى الصلاة ليعرض نفسه على ربه عز وجل ، فإنْ وجدتَ فى نفسك خللاً فى أى ناحية ، فما عليك إلا أنْ تتوضأ ، وتقف بين يدى ربك ليصلح ما تعطل فيك .

وإن كان المهندس يُصلح لك الآلة بشيء مادى ، ولو قطعة صغيرة من السلك ، فإن ربك عز وجل غَيْب ، وعلاجه أيضاً غَيْب يأتيك من حيث لا تدرى .

ومنهج الله الذى وضعه لصيانة خَلْقه فيه أصول وفيه فروع ، الأصول : أن تؤمن بالإله الواحد الفاعل المختار ، وهذه قاعدة ما اختلف عليها أيٌّ من رسالات السماء أبداً ، كما يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .. ⑬ ﴾ [الشورى]

فهذه أصول لا يختلف عليها دين من الأديان ، لكن لما كان الناس منثورين فى شتى بقاع الأرض ، تعيش كل جماعة منهم منعزلةً عن

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده [٥/٣٨٨] ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

الأخرى لبُعْد المسافات وانعدام وسائل الاتصال والالتقاء التى نراها اليوم ، والتى جعلتْ العالم كله قرية واحدة ، ما يحدث فى أقصى الشرق تراه وتسمع به فى أقصى الغرب ، وفى نفس الوقت . لما عاش الناس هذه العزلة لا يدرى أحد بأحد لدرجة أنهم كانوا منذ مائتى عام يكتشفون قارات جديدة .

وقد نشأ عن هذه العزلة أنْ تعددت الداءات بتعدد الجماعات ، فكان الرسول أو النبى يأتى ليعالج الداءات فى جماعة بعينها يُبعَث إلى قومه خاصة ، فهذا ليعالج مسألة الكيل والميزان ، وهذا ليعالج طغيان المال ، وهذا ليعالج انحراف الطباع وشذوذها ، وهذا ليعالج التعصب القبلى .

أما رسالة محمد ﷺ ، فجاءت فى بداية التقاء الجماعات هنا وهناك ، فكانت رسالته ﷺ عامة للناس كافة ، وتجد أصول الرسالات عند موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام أصولاً واحدة ، أمّا الفروع فتختلف باختلاف البيئات .

لكن ، لما كان فى علمه تعالى أن هذه العزلة ستنتهى ، وأن هذه البيئات ستجتمع وتلتقى على أمر واحد وستتحد فيها الداءات ؛ لذلك أرسل الرسول الخاتم لهم جميعاً على امتداد الزمان والمكان .

وفى هذه الآية : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .. ﴿٦٧﴾﴾ [الحج] أى : أن الحق سبحانه جعل لكل أمة من الأمم التى بعث فيها الرسل مناسك تناسب أقضية زمانهم ؛ لأنهم كانوا فى عزلة بعضهم عن بعض ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة]

فالشرائع تختلف فى الفروع المناسبة للزمان وللمكان وللبيئة ،

أما الأخلاق والعقائد فهى واحدة ، فالله عز وجل إله واحد فى كل ديانات السماء ، والكذب مُحرَّم فى كل ديانات السماء لم يأت نبى من الأنبياء ليبيح لقومه الكذب .

والمنسك : المنهج التعبدى ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

﴿هُمْ نَاسِكُوهُ .. (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : فاعلوه .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ .. (٦٧)﴾ [الحج] كأنْ يقولوا : أنت رسول ونحن أيضاً نتبع رسولاً ، له منهج وله شريعة ، نعم : لكن هذه شريعة خاتمة جاءت مهيمنة على كل الشرائع قبلها ، ومناسبة لمستجدّات الأمور .

لذلك يُطمئن الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ بعدها : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧)﴾ [الحج] يعنى : اطمئن ، فأنت على الحق وادْعُ إلى ربك ؛ لأنك على هدى مستقيم سيصل إليهم إنْ لم يكن إيماناً فسيكون إصلاحاً وتقنيناً بشرياً تلجئهم إليه أحداث الحياة ومشاكلها ، فلن يجدوا أفضل من شرع الله يحكمون به ، وإنْ لم يؤمنوا .

وكأن الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ: لا تنازعهم ولا ينازعونك ، وخُذْ ما أمرك الله به : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر] الذين يجادلونك وينازعونك فى الرسالة ، وسوف تحدث لهم أقضية بقدر ما يُحدثون من الفجور ويلجئون إلى شرعك وقانونك ليحلوا به مشاكلهم .

والهدى وُصف بأنه مستقيم ، لأنه هدى من الله صنعه لك ، هدى

الخالق الذى يعلم ملكات النفس الإنسانية كلها ، وشرع لكل ملكة ما يناسبها ، وأحداث الحياة ستضطرهم إلى ما قنن الله لخلافته فى الأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

الجدل : مأخوذ من جَدْل الحبل بعضه على بعض لتقويته ، وإنْ كانت خيطاً رفيعاً نبرمه فنعطيه سُمْكاً وقوة ؛ لذلك الخيط حين نبرمه يقلّ فى الطول ؛ لأن أجزاءه تتداخل فيكون أقوى ، فالجدْل من تمتين الشئ وتقويته ، وكذلك الجدال ؛ فهو محاولة تقوية الحجة أمام الخَصْم .

وفى آية أخرى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] فالمعنى : إنْ جادلوك بعد التى هى أحسن فقُلْ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الحج] يعنى : ردهم إلى الله واحتكم إليه ؛ لذلك جاء بعدها :

﴿ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

لاحظ أن الحق سبحانه لم يقُلْ : يحكم بيننا وبينكم كما يقتضى المعنى ؛ لأنكما طرفان تتجادلان . وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لرسوله ﷺ : اتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم ، ولن يظل الخلاف معك ؛ لأن الخلاف فى شئ واحد ينشأ عن هوى النفس ، وهوى النفس ينشأ من الحرص على السلطة الزمنية ، يعنى : أرحْ نفسك ، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون .